النص الرحلي عند العبدري بين المعرفة والتخيل
من خلال رحلته ومجالها الجغرافي في المغرب الأوسط

The nomadic text of al-Abdari between knowledge and imagination Through his journey and geographical area in the Middle Maghreb

علي عشي[1]

جامعة باتنة 1

maktoob72@gmail.com

تاريخ الوصول :2018/12/08 القبول: 02/05/ 2020/النشر على الخط: 2020/06/15

Received: 08/12/2018 / Accepted: 02/05/2020 / Published online : 15/06/2020

ملخص:

تمتعت الرحلة العبدرية ببنية فرعية نقدية في غاية الأهمية، حيث يحلّل العبدري أوضاع مجتمع المغرب الأوسط من حيث المعرفة والعلم والجهل والفقر والانتظام والفوضى، فيبرز ذلك من خلال نقده وتعليقه وسرده لها، مما يعكس ثقافة هذا الرحالة وقدرته التحليلية.

لكن لا يمكن أن نتغافل عن نقد العبدري وخلفياته التاريخية وحتى السوسيو إجتماعية، بل لا بد من ذكر نقد النقد الذي تقدم به عالم جليل آخر رد فيه على النقد غير البناء للعبدري وهو أحمد البوني وكتابه التعريف ببونة حيث كان الهدف الرئيسي من تأليفه الرد على نقد العبدري، و هذا ما جعل بعض الباحثين يصفون آراء العبدري بالتطرف، لأنه لم يترك بلداً زاره دون أن يوجه له نقدا صريحا.

الكلمات المفتاحية: العبدري، الرحلة، النقد، المغرب الأوسط.

Abstract:

The course of Al-'Abdidi is characterized by an extremely critical structure: Al-Abdri analyzes the situation of the society of the Middle East in terms of knowledge, science, ignorance, poverty, order and chaos as evidenced by his criticism, commentary and narrative, reflecting the traveler's culture and analytical abilities.

But we can not ignore the criticism of Al-Abdri and his historical past and even sisyogate, but we must mention the criticism of the criticism formulated by the world of Jalil's last response to the criticism of the bidder by Al-Abdri , Ahmed Al-Boni and his definition of the book Bbonah, where the main purpose of writing to answer criticism Al-Abdari, and this is what prompted some scholars to describe his point of view on al extremism -Abdari, because Al-Abdri did not leave a country without his critics, frankly, unambiguously and ambiguously

Keywords: Al-Abdari, travel, critic, average Moroccan.

[1] المؤلّف المرسل: علي عشي البريد الإلكتروني: maktoob72@gmail.com

1. مقدمة:

لا يخفى ما لأدب الرحلة في تراثنا من أهمية بارزة في مختلف المجالات وذلك لما تحتويه الرحلات من فوائد علمية، وأدبية جمة تعتمد في كثير منها على المشاهدة، والرواية الشفوية، إذ كان بعض الرحالين النابهين يقومون بتدوين مشاهدتهم، ومواقفهم من أحوال العالم آنذاك، فيصفون تجوالهم في الأقطار المختلفة التي يمرون بها، ولقاءهم لمشاهير الأدباء والعلماء، الذين قابلوهم في رحلاتهم وتقييد ما كان يصدر من شعر وغيره.

والمشهور من الرحلات بين الناس رحلة ابن جبير(ت614هـ/1217م) ورحلة ابن بطوطة(ت779هـ/1377م)، ورحلة العبدري لا تقل أهمية عن هاتين الرحلتين، إن لم تكن تفوقهما في بعض الجوانب، ولاسيما في الجانب الأدبي[1].

وتحتل رحلة العبدري مكانة هامة في تاريخ المغرب الأوسط، وفي أدبه، بل حتى في فنه، حيث كان العبدري خلال مروره بمدن المغرب الأوسط، يعلق على سلوكات ناسها ويستنكرها استنكارا شديدا كدليل لنقده لتصرفاتهم، انطلاقا من المأثور الصحيح أو الحجج العقلية، ورغم ذلك كان يشيد في بعض الأحيان بأماكن العلم والراحة، كما يحاول العبدري أن يشرك القارئ في بعض الحالات باستحسانه أو استهجانه للموقف الذي يذكره.

كما يحلل أوضاع مجتمع المغرب الوسط من حيث العلم والجهل والفقر والانتظام والفوضى، فيبرز ذلك من خلال نقده وتعليقه وسرده لها، حيث تمتعت الرحلة العبدرية ببنية فرعية نقدية في غاية الأهمية، مما يعكس ثقافة هذا الرحالة وقدرته التحليلية، بل وحتى ذوقه الفني التخيلي، ولكن لا يمكن أن نتغافل نقد العبدري وخلفياته التاريخية وحتى السسيواجتماعية، بل لا بد من ذكر نقد النقد الذي تقدم به عالم جليل آخر رد فيها على النقد المجرح المزايد من قبل العبدري وهو أحمد البوني وكتابه التعريف ببونة حيث كان الهدف الرئيسي من تأليفه الرد على نقد العبدري.

من خلال ذلك ستكون الإشكالية التي ندرسها، **هل كان العبدري محقا في كل نقده وسرده لأوضاع مدن المغرب الأوسط؟ أم كان تحت تأثير ظروف معينة ساهمت في تهويله للأحداث؟**

2. العبدري تعريف وتقديم:

إذا نظرنا إلى تواجد الرحالة و مؤلفاتهم فإننا نلاحظ أن القرن السابع الهجري كاد يخلو من واصفٍ لأحواله مقيد لحوادثه لو لم يقيض الله له محمدا العبدري، فمن هو هذا الرحالة؟.

2-1.شخصية العبدري:

هو أبو عبد الله محمد بن محمد بن علي بن أحمد ابن مسعود[2]، (أو سعود) العبدري[1]، الحيحي المعروف فيها(حاحة) بأبي البركات، البلنسي[2]، وينتهي نسبه إلى عبد الدار بن قصي بن كلاب وإليه نسبته[3].

1- سأعتمد في هذا البحث على رحلة العبدري تحقيق علي إبراهيم كردي، تقديم شاكر الفحام، دار سعد الدين للنشر والتوزيع، دمشق، سوريا، ط2، 2005. مع الاستئناس بالمحققين الآخرين للرحلة.

(2) عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني، فهرس الفهارس والأثبات، تحقيق إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 1982، ج2، ص809.

ولم تسعفنا المصادر بمعرفة تاريخ ولادته وتاريخ وفاته بالضبط، وكل ما نعرفه أنه قام برحلته في الخامس والعشرين من ذي القعدة عام ثمانية وثمانين وست مئة، وكان عندها في عنفوان عمره، كما قال له شيخه أبو زيد الدباغ[4].

فإذا افترضنا أنه كان آنذاك في الخامسة والأربعين، بدليل قوله عن ابن خميس التلمساني الذي كان – حين لقيه في تلمسان–في الثامنة والثلاثين من عمره بأنه" فتي السن"[5]، فتكون ولادته حوالي سنة 643 هـ/1245م، وأغلب الظن أن وفاته كانت بعد سنة 720هـ/1320م[6].

ولا يذكر العبدري شيئا عن دراسته الأولى، ولا تنجدنا المصادر في معرفة بدايات تكوينه الثقافي، ولا يستبعد أنه تتلمذ على يد والده– المعلم– ودخل الكتاب في بلدته ، ثم انتقل الى مراكش التي كانت مركزا علميا مرموقا آنذاك، فأخذ عن جملة من علمائها امثال محمد بن علي بن يحي الشريف الذي كان شيخه وشيخ صاحبه ابن عبد الملك المراكشي[7].

وقد أفاد العبدري من كثرة مشايخه، وتنوع ثقافاتهم فأتقن كثيرا من الفنون، ظهرت جلية في رحلته التي بدا فيها المؤلف حافظا للقرآن والحديث مطلعا على الأدب العربي نثره وشعره، وخطبه ورسائله، عارفا بأيام العرب وغزواتهم، وفصحاء خطبائهم، وله معرفة بالأسماء والألقاب والكنى، وأسماء الأماكن، وبمصطلحات علوم الأدب والبلاغة والعروض[8].

2–2. مؤلفاته:

لا نعرف حتى الآن للعبدري مؤلفا غير الرحلة التي بين أيدينا غير أننا لا نسلم بهذا، ولا نظن أن علم الرجل عَقِمَ عن كتاب آخر وهو من هو في علمه ومكانته.

---

(1) نسبته إلى بني عبد الدار لهذا سمي بالعبدري. الزركلي، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط15، 2006، ج7، ص32.

(2) عمر فروخ، تاريخ الأدب العربي، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط1، 1983، ج6، ص401، وقد ذكر الزركلي أن أصله من بلنسية ثم هاجر إلى بلدة أزمور ثم حاحة بالمغرب التي استقر بها. المصدر السابق، ج7، ص32. الأستاذ محمد الفاسي نفى هذه النسبة الأندلسية عن الرجل في بحث له عن العبدري وقرر أنه مغربي من أصل عربي قريشي يرجع إلى بني عبد الدار.صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد، مجلد 9–10، سنة 1961–1962، ص1–14.وذهب الأستاذ بن جدو الذي نشر الرحلة سنة 1965، أن الرجل قد يكون أصل بيته من بلنسية، ثم هاجر أهله به وهو صغير إلى المغرب، حيث استقروا في إقليم الذي ينسب إلى قبيلة حاحة المصمودية حول مدينة الصويرة الحالية المعروفة باسم موجادور أيضا شمالي مدينة أغادير، وهناك نشأ محمد العبدري عربيا مغربيا يعتبر من منطقة حاحة بلده ومنشأه. أنظر: الرحلة المغربية، تحقيق بن جدو، مطبعة البعث، ط1، قسنطينة، 1964، ص و.

(3) العبدري، الرحلة المغربية"رحلة العبدري" تحقيق علي إبراهيم كردي، تقديم شاكر الفحام، دار سعد الدين للنشر والتوزيع، دمشق، سوريا، ط2، 2005، مقدمة المحقق ، ص18.

(4) العبدري، الرحلة المغربية، ص164.

(5) العبدري، الرحلة، ص53.

(6) عمر فروخ، المرجع السابق، ج6، ص401.

(7) العبدري، الرحلة المغربية، ص302.

(8) أنظر مقدمة المحقق علي إبراهيم كردي، الرحلة، ص8.

ويبدو أن غوائل الدهر قد أتت على ما أنتجه هذا العالم، ولم يسلم لنا سوى الرحلة، ومما يعيننا على ما نذهب إليه ويقويه أن البلوي[1]، أورد في رحلته قصيدة العبدري التائية التي عارض فيها القاضي عياضا في كتابه "الشفا" ومطلعها:

يَا سَاكِنِي دَارَ الحَبِيبِ عَلَيْكُمُ مِنِي سَلَامُ طَيِّبُ النَّفَحَاتِ

وكذلك فقد أتى العبدري ببيت مفرد في رحلته وهو:

شَبَابِي وَالٍ جَاءَ شَيْبِي بِعَزْلِهِ فَقَامَ بِأَعْلَى الرَّأسِ أَيَّ خَطِيبِ

وقال قبل إيراده: " وقد كان هذا المعنى عرض لي قديما فنظمته في بيت من قصيدة" وهذا يعني أن ديوان شعره ما خلا بعض الشذرات منه التي وقفنا عليها قد ضاع[2].

وكذلك أشار الكتاني صاحب" فهرس الفهارس"إلى أنه يروي فهرسة العبدري" من طريقين مختلفين، ولا نظن أنه عنى بالفهرسة الرحلة لأنه ضرب من التأليف يختلف اختلافا بينا عن التأليف في الرحلات[3].

3- الرحلة مسار وأهمية.

إن أساليب تدوين الرحلة تختلف من رحلة لأخرى باختلاف مدونيها لذلك كانت دراسة هذه الرحلات رهينة بالبحث عن شخصية من دونها لمعرفة أخلاقهم وللاطلاع على مستواهم العلمي وعلى مدى ما يملكون من مؤهلات الأخبار، وبذلك يمكن الحكم عليهم من حيث الصدق والكذب والمغالات والتقصير وغير ذلك.

3-1. التعريف برحلة العبدري:

هذه الرحلة سماها "ما سمى إليه الناظر المطرق إلى بلاد المشرق"[4]، ويسميها البعض ب " ملء العيبة فيما اجتمع بطول الغيبة في الرحلة إلى مكة وطيبة"[5]، وتعرف عادة بالرحلة المغربية. وكان وراء رحلة العبدري سببان حملاه على المضي فيها:

أولا:سبب ديني وهو القيام بفريضة الحج وزيارة الأماكن المقدسة والاتصال بالمتصوفة والصالحين، وقد صرح العبدري مرارا بأنه كان ينوي الإقامة بمكة أو ما جاورها ، وبأنه قد اكترى المنزل وجهز لوازمه، وصرف الركب إلى المغرب، لولا حدوث فتنة هناك أرغمته على الرحيل عن مكة[6].

ثانيا: هو رغبته في لقاء العلماء والمشايخ والأخذ عنهم، وكان العبدري حريصا على البحث عن السند العالي، فيما أخذه عن هؤلاء العلماء والمحدثين، وكان العبدري في سؤال دائم عن الأحوال العلمية والثقافية في البلاد التي مربها، فإذا صادف مجموعة من العلماء في بلد من البلدان طرب لذلك وانشرحت نفسه فانطلق لسانه

(1) خالد بن عيسى البلوي، تاج المفرق في تحلية علماء المشرق، تحقيق الحسن السائح، طبع في وزارة الأوقاف المغربية الرباط، مطبعة المحمدية، د ط ، ج2، ص109.
(2) العبدري، الرحلة المغربية، ص137.
(3) عبد الحي الكتاني، المصدر السابق، ج2، ص809.
(4) العبدري، الرحلة المغربية، ص28.
(5) عمر فروخ، المرجع السابق، ج6، ص402.
(6) العبدري، الرحلة المغربية، ص391.

ثناء وحمدا كما حدث مع ابن خميس[1]، وإذا لم يجد هذا النوع من العلماء هجا بلسانه الذّرِب هذه البلاد وأهلها كصنيعة في بونة وقسنطينة وغيرها..

فالرحلة إذا كانت ذات هدف مزدوج ككثير من الرحلات الحجازية التي كان أصحابها يقصدون الديار المقدسة لأداء فريضة الحج، ويغتنمون الفرصة ليلتقوا الشيوخ في المدن التي كانوا يمرون بها، ويأخذون عنهم ما يتيسر لهم من العلوم المختلفة[2].

أما مدة الرحلة فيبدو أنها استمرت أكثر من سنتين، ويذكر البحاثة حسن حسني عبد الوهاب زار تونس مرتين في طريق ذهابه إلى الحج سنة 688هـ/1289م[3]، وعند رجوعه سنة 691هـ/1292م[4]، فعلى هذا يكون العبدري قد أمضى ثلاث سنوات في رحلته ويؤكد هذا البلوي حين أورد أبياتا للعبدري في رحلته، فقال: أنشدها في تونس في رجب الفرد سنة 690هـ/1291م[5]، فمن المحتمل أن يكون العبدري قد عاد في هذه السنة السنة من الحجاز وأقام في تونس سنة أخرى.

3-2. منهج العبدري في تأليف الرحلة:

أوضح العبدري في مقدمة الرحلة منهجه في تأليفها فقال:"...وبعد فإني قاصد بعد استخارة الله سبحانه إلى تقييد ما أمكن تقييده، ورسم ما تيسر رسمه وتسويده مما سما إليه الناظر المطرق، في خبر الرحلة إلى بلاد المشرق، من ذكر بعض أوصاف البلدان، وأحوال من بها من القطان حسبما أدركه الحِسُّ والعيان، وقام عليه بالمشاهدة شاهد البرهان، من غير تورية ولا تلويح، ولا تقبيح حسن، ولا تحسين قبيح، بلفظ قاصد لا يحجم مُعرّدا، ولا يجمح فيتعدى المدى، مسطرا لما رأيته بالعيان، ومقررا له بأوضح بيان"[6].

وقد كان العبدري وفيا لهذا المنهج الذي ارتضاه لرحلته، مطبقا له، فقد وصف البلدان وصفا دقيقا بمبانيها، وآثارها، وكثيرا ما كان يعرج على أهلها فيصف عاداتهم وتقاليدهم، ولباسهم، ومستواهم العلمي، ولم يكن متساهلا في نقد ما كان يراه غير طبيعي سواء في أخلاق الناس أو في عاداتهم وخصوصا فيما يتعلق بالناحية العلمية للبلاد التي كان يدخلها، كقوله عن تلمسان"...وأما العلم فقد درس رسمه في أكثر البلاد، وغاضت أنهاره فازدُحِمَ على الثّماد، فما ظنك بها وهي رسم عفا طلُلُه، ومنهل جف وشلُه..." [7].

وكان العبدري في رحلته فيما يكتب حريصا على أن يكون الكلام منسقا يعتمد على السجع غير المتكلف ويقتبس كثيرا من المعاني من أمثال العرب وحكايات التاريخ وآيات القرآن وأحاديث الرسول"ص" وقواعد النحو

(1) العبدري، الرحلة المغربية، ص53، 54، 63، 66.

(2) أنظر مقدمة المحقق علي إبراهيم كردي، الرحلة، ص11.

(3) يذكر عمر فروخ أنه ذهب إلى الحج وبالتالي بداية رحلته في 25 ذي القعدة، سنة 668 هـ/ 11 12/ 1289م. تاريخ الأدب العربي، ج6، ص401.وهو خطأ مطبعي فقط بدل أن يكتب 688 هـ كتب 668هـ.

(4) التجاني، الرحلة، تقديم حسن حسني عبد الوهاب، الدار العربية للكتاب، ليبيا- تونس، 1981، ص يز.

(5) البلوي، المصدر السابق، ج2، ص109.

(6) الرحلة المغربية، ص28.

(7) المصدر نفسه، ص49. وغاض الماء: نقص؛ والثماد: الحُفر يكون فيها الماء القليل؛ والوَشَلُ: الماء القليل، يتحلّب من جبل أو صخرة، يقطر منه قيلا قليلا.

والبلاغة والعروض بحيث يجد القراء الذين لهم خبرة بهذه العلوم والفنون متعة فيما يقرؤون ويتلذذون بكثير من فقرات كتابه[1].

ولجأ العبدري إلى ذكر الأخبار التي استفادها والأشعار التي كان أنشده إياها العلماء، كما لقي العبدري مجموعة من المحدثين الذين سمع منهم كثيرا من الأحاديث الشريفة وأثبت بعضها في رحلته، معتنيا بالسند العالي[2].

هذا ما جعل بعض الباحثين يصف آراءه بالتطرف[3]، لأن العبدري لم يترك بلداً دون أن يوجه نقده بصراحة، لا مداراة ولا مواربة[4].

3-3. أهمية الرحلة:

لم تنل رحلة العبدري مكانتها بين الرحلات، وأول من تنبه إلى شأنها علماء الاستشراق، الذين انكبوا عليها دراسة وترجمة[5]، وبقيت هذه الرحلة حبيسة الرفوف إلى أن جاء الأستاذ أحمد بن جدو وحاول أن يخرجها للناس، فطبعها منقوصة غير تامة، وزاد في سوئها كثرة الأخطاء[6]، ثم طبعت في المغرب بعناية الدكتور محمد الفاسي، إلا أن هذه الطبعة أيضا لم تف بحق الرحلة ولم تقدمها للناس على شكلها الصحيح.

ومما يدل على أهمية الرحلة انتشار نسخها المخطوطة في كثير من مكتبات العالم، واحتفال المؤرخين بها إذ نقل كثيرا منهم عنها كالتنبوكتي صاحب نيل الابتهاج الذي أفاد منها أيما إفادة ونقل كثيرا من التراجم عنها، وعدها مصدرا من مصادر كتابه[7]، كما نقل عنها الوزير السراج في كتابه" الحلل السندسية في الأخبار التونسية" فقرات طويلة في الأوصاف والتراجم وعدها أيضا من مصادره في تأليف كتابه[8].

(1) محمد بن عبد العزيز الدباغ، "العبدري واتجاهه الأدبي من خلال رحلته"، مجلة المناهل، وزارة الشؤون الثقافية، الرباط، المغرب، العدد39، السنة 16، 1990، ص105.

(2) أنظر مقدمة المحقق علي إبراهيم كردي، الرحلة، ص13.

(3) مثل حسين مؤنس الذي نعت العبدري بالرجل الغاضب الساخط لا يكاد يلقى ما يرضيه. أنظر تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس، ط2، مدريد، 1986، ص520.

(4) أنظر مقدمة المحقق علي إبراهيم كردي، الرحلة، ص13.

(5) كان أول من اشتغل بها المستشرق الفرنسي" مانسان" في مقال نشر بالجريدة الآسيوية، ثم نشر المستشرق شربونو بالجريدة الأسيوية كذلك سنة 1854 م مقالا عنها أتبعه بترجمة بعض فصولها.

Cherbonneau ; Netice et Extraits des Voyagea d' EL-Abdery ; dani journ. AS.5ème Série IV, 144spp.

(6) أنظر: الرحلة المغربية، تحقيق بن جدو، مطبعة البعث، ط1، قسنطينة، 1964.

(7) أنظر نيل الابتهاج بتطريز الديباج، دار الكتب العلمية، بيروت، د ط، ص68، 103، 152، 164، 203، 222.

(8) أنظر محمد بن محمد السراج، الحلل السندسية في الأخبار التونسية،تحقيق محمد الحبيب الهيلة، بيروت، 1985، ج1، ص246،245، 247، 256، 499، 500، 560، 667، 668.

وقد اهتدى بها عدد من الرحالين ونقلوا عنها، واسترشدوا بها، فقد نقل عنها ناسخ رحلة ابن بطوطة فقرات كثيرة[1]، وكذلك شأن الرحالة ابن عبد السلام الناصري الذي كان يستحضرها في كل مراحل رحلته الكبرى والصغرى، وعبد القادر الجيلاني الإسحاقي، واعتماد العياشي عليها في كثير من تدقيقات، إذ نراه يقف كثيرا مع ما ذكره العبدري محققا ومدققا[2]، وصنع الورثلاني صنيعه أيضا في رحلته[3].

ونظرا إلى أهميتها فقد قام أبو العباس بن قنفذ القسنطيني(ت809هـ/1406م)باختصارها بعنوان" المسافة السنية في اختصار الرحلة العبدرية"[4]، مازال هذا المختصر عبارة عن مخطوط[5].

ويبقى العلماء والباحثون حتى العصر الحاضر يهتمون برحلة العبدري ويقدرونها، إذ عمد العلامة عباس بن إبراهيم المراكشي إلى تلخيصها في كتابه الجليل:" الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام"[6].

كما كانت رحلة العبدري مملوءة بكلام كثير في الفقه والنحو واللغة والأدب والشعر، وأنفق صفحات بأسرها في مناقشة دقائق من هذه العلوم أو رواية أشعار له ولغيره[7].

ومما يزيد في أهمية الرحلة أنها تعد وثيقة مهمة عن الحياة الثقافية في أواخر القرن السابع الهجري في البلاد التي مر بها العبدري التقى علماءها فقد أعطانا صاحب الرحلة فكرة موسعة عن المستوى الثقافي في هذه البلاد وعرفنا بأعلام العلماء، وما كان يهتم به من العلوم المختلفة، كما دلنا على الكتب التي كانت رائجة آنذاك، وطرق التدريس المتبعة عصرئذ[8].

كما ترجم العبدري لمجموعة من العلماء الذين لا نكاد نعثر لهم على صورة واضحة في المصادر المختلفة، فأضاء جوانب من شخصياتهم، وعرفنا بهم، ولهذا كانت موردا عذبا لمؤلفي المعاجم المتأخرين وصلة أو تكملة لرياض النفوس تأليف أبي بك عبد الله بن أبي عبد الله المالكي القيرواني، ولطبقات علماء إفريقية تأليف أبي العرب محمد بن تميم بن تميم التميمي.

(1) أنظر مثلا وصف ابن بطوطة والعبدري لمنار الإسكندرية ولعمود السواري، والنيل والأهرام...

(2) أبو سالم العياشي، رحلة العياشي" أو ماء الموائد"، الرباط 1970، ج1، ص92، 110.

(3) الورثلاني، الرحلة الورثلانية، دار الكتاب العربي، بيروت، 1974، ص182، 222، 233، 239، 292.

(4) عبد الحي الكتاني، المصدر السابق، ج2، ص809.

(5) أنظر مقدمة المحقق علي إبراهيم كردي، الرحلة، ص17.

(6) العباس بن إبراهيم المراكشي السملالي، الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام، المطبعة الملكية، الرباط، 1974، ج4، 287-330.

(7) حسين مؤنس، المرجع السابق، ص525.

(8) أنظر مقدمة المحقق علي إبراهيم كردي، الرحلة، ص18.

كما تفيد الرحلة علماء الجغرافية[1]، والتاريخ في دراسة الظواهر التي كانت سائدة آنذاك، كما تفيد مؤرخي الأدب في التأريخ الأدبي للأقطار التي مر بها العبدري، فهي تضم نصوصا أدبية شعرية ونثرية ونقدية مهمة تنفرد الرحلة في بعضها، بما يزيد في أهمية الرحلة[2].

ومن فوائد الاطلاع على هذه الرحلة التمكن من معرفة الروابط التي كانت تربط بين الدول والأقاليم في شتى الميادين[3]، وبين مختلف مدن المغرب الأوسط.

4- مدن المغرب الأوسط من خلال نظرة العبدري الحقيقية والخيالية.

يقول العبدري : " وهذا وقد بدأت بتقييدها في تلمسان، ولم يمكني إظهارها هناك، وأظهرتها بعد خروجنا منها"[4].

4-1.تلمسان:

جاء في رحلة العبدري: "ثم وصلنا إلى مدينة تلمسان، فوجدناها بلدا حلت به زمانة الزمانة، وأخلت به حوادث الحدثان، فلم تبق به علالة، ولا تُبصر في أرجائه للظمآن بلالة، وقد شاهدت جمعا من الحجاج ينيفون على الألف وردوها فوقفوا إلى ملكها، فأعطاهم دينارا واحدا، وأغرب من هذا ما شهدته من منصور صاحب مليّكش، وهو أن جماعة من الحجاج نحو العشرين وقفوا إليه في محلته عند بيته فكلموه في عشائهم فرحب بهم، واحتفل في السلام عليهم، ثم أخذ ينادي يا أهل الدوار هؤلاء ضيفانُ الله ، من يحمل منهم إلى بيته واحدا، وجعل يكرر ذلك كما يصنع المَدَرونَ أهل المدر، فلم يجبه أحد منهم، ولى عنهم ووراءه جمع كثيف من الفرسان وهو سلطان تلك النواحي"[5].

أما وصفه الجغرافي لتلمسان:"تلمسان مدينة كبيرة سهلية جبلية، جميلة المنظر، مقسومة باثنتين بينهما سور، ولها جامع عجيب مليح متسع، وبها أسواق قائمة وأهلها ذوو ليانة، ولا بأس بأخلاقهم"[6] ويضيف" والدائر بالبلد كله مغروس بالكَرْم وأنواع الثمار، وسوره من أوثق الأسوار وأصحها، وبه حمامات نظيفة ومن أحسنها وأوسعها وأنظفها حمام العالية وهو مشهور، قل أن يُرى له نظير ، وهذه المدينة بالجملة ذات منظر ومخبر وأقطار متسعة، ومبانيها مرتفعة"[7].

(1) يذكر عمر فروخ أن هذه الرحلة قليلة الابتكار قليلة الفوائد الجغرافية فقد أخذ العبدري كثيرا من أوصاف البلدان عن الجغرافيين المتقدمين عنه كالبكري، إلا أنه يصف البلدان التي يمر بها من النواحي العمرانية والاقتصادية والعلمية ثم يعرف عدد علماء القرن السابع ويورد أشياء من إنتاجهم مع شيء من النقد. تاريخ الأدب العربي، ج6، ص402.

(2) أنظر مقدمة المحقق علي إبراهيم كردي، الرحلة، ص18.

(3) محمد بن عبد العزيز الدباغ، المرجع السابق، ص99.

(4) أنظر: الرحلة المغربية، ص39.

(5) المصدر نفسه، ص47-48.

(6) أنظر: الرحلة المغربية، ص48.

(7) نفسه، ص49.

ثم يرجع العبدري لنقده القاسي بقوله:" لكنها مساكن بلا ساكن، ومنازل بغير نازل، ومعاهد أقفرَتْ من متعاهد، تبكي عليها فتنسكب الغمام الهُمّع[1] وترثي لها فتندبُ الحَمام الوُقّع إن نزل بها مستضيفُ قَرَتْهُ بؤساً أو حل فيها ضعيف كَسَتْهُ من رداء الرّدى لَبوسا"[2].

ويعود العبدري ويظهر تحاملا واضحابقوله:"وأما العلم فقد دَرَسَ رسمُهُ في أكثر البلاد، وغاضَتْ أنهاره فازدُحِم على الثُّماد[3]، فما ظنك بها وهي رسم عفا طلله، ومنهل جف وشله، وقد حظرت بها مدرسا مذكورا عندهم يقرأ عليه باب التوكيد من الجُمَل، فسمعته يقول كلا للمذكرين وكلتا للمذكرتين ، وأعربوا قول ابن دريد" هُمُ الذين جَرّعوا من مَا حَلُوا" بأن: هم مبتدأ والذين مبتدأ ثان وجرعوا خبره والجملة في موضع خبر الأول وهذا قليل من كثير"[4].

4-2.مليانة:

ثم رحل العبدري عن تلمسان متجها نحو مليانة قائلا:" ثم وصلنا وقد ألقى جَمَلُ الإعياءِ جِرانَه، وغني بلبلُ العناء ألوانه، إلى البلدة الخصيبة مليانة[5]، وهي مدينة مجموعة مختصرة وليست مع ذلك عم أمّهات المدنِ مُقصّرة أشرفت من كَثَبٍ على وادي شلف، واستشرفت نسيم طرفها من شَرَفْ، في روضة جمة الأزهار والطرف، فرعت في سفح جبل حمى حماها أن يُرام، وشرعت في أصل نهر يشفي الهُيّمَ من الهُيام، شاق منظراً، وراق مخبراَ، وشفى الظّماءَ مَوْرداَ ومصدراً يشتهي الناظِرُ إليه-وهو ريّان-الشروع...وبها جامع مليح عجيب، يدعو الشوق من رآه فيجيب، ولكن الزمان قد عوضه من حُليّ عَطَلا، وأدى له من حكمة خَطَلا، وأبدل هالته السُّها من تلك الأقمار وكساهُ بعد الحَبْرِ الأظمار"[6].

أما بخصوص واقعها العلمي فيصفه بمرارة " وما بقي بها من له بالعلم أدنى عناية، ولكنا قد استفدنا بها حكاية وهي أن بعض الكتاب كان يكتب كتابا عن أميي، فلما قرأه عليه لم يرضه، فمزقه، فكتبه ثانية فمزقه، فلما رأى تعسفه أخذ قرطاسا ونظم فيه ارتجالا:

رَأَيْتُكَ تَكْوِينِي مِنَّةٍ كَأَنَّكَ أَنْتَ الْيَوْمَ عِلَّةُ تَكْوِينِي[7].

4-3.الجزائر[8]:

(1) الهمع: الماء سال.

(2) أنظر: الرحلة المغربية، ص49.

(3) الثماد : الحفر يكون فيها الماء قليل.

(4) أنظر: الرحلة المغربية، ص50.

(5)مليانة: مدينة في آخر إفريقية بينها وبين تنس أربعة أيام وهي مدينة رومية قديمة، جددها زيري بن مناد الصنهاجي.ياقوت الحموي، معجم البلدان، دار صادر ، بيروت، 1977، ج5، ص196.

(6) أنظر: الرحلة المغربية، ص78-79.

(7) المصدر نفسه، ص80-81.

(8)أول من وضع فيها مستوطنات تجارية هم الفنيقيون باسم إيكوسيم خلال القرن الثالث قبل الميلاد، ثم بعد الاحتلال الروماني، استوطنوا بها وغيروا اسمها إلى مدينة إيكوسيوم.علي عبد القادر حليمي، مدينة الجزائر، نشأتها وتطورها، المطبعة العربية لدار الفكر الإسلامي، الجزائر، 1972، ص183- 194.وردت باسم جزائر

ويـذكر العبـدري:"ثم وصـلنا الجزائـر، وهـي مدينـة تسـتوقف بحُسـنِها نـاظرَ النـاظرِ ويقـف علـى جمالِهـا خـاطرُ الخـاطرِ، قـد حـازت مـزيتي البـر والبحـر، وفضـيلتي السـهل والـوعر، لهـا منظـر معجـب أنيـق، وسـور معجـز وثيـق ، وأبـواب محكمة العمل، يسرح الطرف بها حتى يمل"[1].

ويعـود العبـدري دائمـا بعـد تقـديم الجانـب الطبيعـي والجغـرافي ليعـرج بلكـن علـى الجانـب العلمـي بنـبرة متشـائمة ومتقهقـرة بقولـه:"ولكنهـا أقفـر مـن المعنـى المطلـوب...فلـم يبـق بهـا مـن هـو أهـل العلـم محسـوب، ولا شـخص إلى فـن مـن فنـون المعـارف منسـوب، وقـد دخلتهـا سـائلا عـن عـالم يكشـف كربـة، أو أديـب يـؤنس غربـة، فكـأني أسـأل عـن الأبلـق العقوق[2] أو أحاول تحصيل بيض الأنوق"[3].

ويبدو أن مدينة الجزائر انحط وزنها بعد زوال الدولة الموحدية وتطاحن الدولتين الزيانية والحفصية عليها[4].

4-4.بجاية[5]:

يقـول عنهـا العبـدري في وصـفها:" مبـدأ الاتفـاق والنهايـة، وهـي مدينـة كبـيرة حصـينة شـهيرة، بريـة وبحريـة، سـنية سـرية، وثيقـة البنيـان، عجيبـة الإتقـان، رفيعـة المبـاني، موضـوعة في أسـفل جبـل وعـر مقطوعـة بنهـر وبحـر، مشـرفة عليهمـا إشـراف الطليعـة، متحصـنة بهمـا منيعـة، فـلا مطمـع فيهـا لمحـارب، ولا متسـع بهـا لطـاعن وضـارب، ولهـا جـامع عجيـب منفـرد في حسـنه غريـب...فهـو غايـة في الفرجـة والأنـس، ينشـرح الصـدر لرؤيتـه وترتـاح الـنفس، وأهلهـا يواظبـون علـى الصـلاة فيـه مواضـبة رعايـة، ولهـم في القيـام بهـت همـم وعنايـة، فهـو بهـم مـأهول عـامر يتخلـل أنسـه مسـلك الأرواح ويخامر"[6].

بني مزغنـاي عنـد ابـن حوقـل(ت367 هـ/977 م)، صـورة الأرض، منشـورات مكتبـة دار الحيـاة، بـيروت، لبنـان، 1992، ص77؛ ووردت عنـد الإدريسـي (ت560هـ/1165م) باسم الجزائر. نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، قسم المغرب العربي، تحقيق محمد حاج صادق، د ط ، الجزائر، 1983، ص114.

وبني مزغنة من بطون قبيلة صنهاجة، والتي تنتشر مواطنهم من المسيلة إلى حمزة بالجزائر ومتيجة ولمدية وملیانة.ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ضبط المتن والحواشي والفهارس خليل شحادة ومراجعة سهيل زكار، دار الفكر للطباعة، بيروت، لبنان، ط1، 2000، ج6، ص202-203.

(1) أنظر: الرحلة المغربية، ص82.

(2) في المثل:"أعز من بيض الأنوق، والأبلق العقوق" والعقوق: الحامل من النوق و الأبلق: من صفات الذكور، فكأنه قال: طلب الذكر الحامل، والأنوق طائر تبيض إناثه حيث لا يلحق شيء بيضها، وفي المثل السائر :" كلفني بيض الأنوق" يضرب في الرجل يسأل مالا يكون ومالا يُقدر عليه. أبو الفضل الميداني(ت 518هـ)، مجمع الأمثال، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة السنة المحمدية، 1955، ج2، ص43-44.

(3) أنظر: الرحلة المغربية، ص82.

(4) علي عبد القادر حليمي، المرجع السابق، ص 204.

(5) بجاية بالكسر وتخفيف الجيم وألف وياء وهاء مدينة على ساحل البحر بين إفريقية والمغرب، كان أول من اختطها الناصر بن علناس بن حماد بن زيري بن مناد بن بلكين (454-481 هـ/1062-1078م)في حدود سنة 457 هـ/1064م كانت قديما عبارة عن ميناء ثم بنيت المدينة. ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج1، ص339.و يقول ابن خلدون في تسميتها "وفي سنة 460هـ/1067م، افتتح الناصر جبل بجاية، وكان له قبيل من البربر يسمون بهذا الاسم، فلما افتتح هذا الجبل اختط به المدينة وسماها الناصرية، وتسمى عند الناس باسم القبيلة وهي بجاية". العبر، المصدر السابق، ج6، ص231-232 ومن الواضح أن بجاية أخذت اسمها من القبيلة التي كانت تسكنها.

(6) أنظر: الرحلة المغربية، ص82-83.

كما قال"وهذا البلد بقية قواعد الإسلام، ومحل جلة من العلماء أعلام، وله مع حسن المنظر طيب المخبر، ومع المرأى الرائق المعنى الفائق، ومن الحصانة ووثاقة البنيانِ ما أزرى بـإِرَمَ وغُمْدان"[1] ، ولأهله من حسن الخلق والأخلاق، ما أنبأ عن طيب الهواء والماء والتربة والأعراق، غير أنه قد اعتراه من الغير، ما شمل في هذا الأوان البدو والحضر، وقد غاض بحر العلم الذي كان به حتى عاد وشلا[2]، وعفا رسمه حتى صار طللا؛ وبه أحاد من طلبة العلم قد اقتصروا على مطالعة الصحف والدفاتر، وسلكوا في ترك تصحيح الرواية طريقا لم يرضه الأعلام الأكابر"[3].

ويضيف:" ولم أر بها من أهل الشيمة الفضلى، والطريقة المثلى، أمثلَ من الشيخ الفقيه، الخطيب، الصالح، المسند الرواية، أبي عبد الله محمد بن صالح ابن أحمد الكناني الشاطبي[4]- حفظه الله-وهو شيخ على سنن أهل الدين سالك سبيل المهتدين، مقبل على ما يعينه، مشتغل بعمرٍ في طاعة الله...وقد شاهدت له من غزارةِ العَبْرَة، ما هو من أعظم العِبْرَة"[5].

4-5.ميلة[6]:

ثم واصل العبدري خط سيره حيث وصل إلى بني ورار ثم إلى ميلة، فلم نر إلا رسوما بحوادث الدهر محيلة، يقتصر في وصفهما من أراد أن يعمل بيانه، على ما تقدم من وصف ملياناة، وكلتاهما على شكل مدينة ليست بثمينة ولا متينة؛ عمل البلى فيهما وفي السكان، وأدخل الجميع في خبر كان، وفي كلتيهما عين تَسُحُّ وعُنْصر[7]، يجود ولا يشح، وبنو ورار أعمر الحلّيْن، وعَيْنُها أغزر العينين تسقي البلد نهلا وعللا...وكفى ببلد خلاءً وفناءً ألا يحوي ما يوصف إلا ماءً وبناءً[8].

4-6.قسنطينة[9]:

(1) غمدان: قصر معروف باليمن.

(2) الوشل الماء القليل.

(3) أنظر: الرحلة المغربية، ص83.

(4) توفي سنة 699 هـ أنظر الغبريني، عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تحقيق رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط2، 1981، ص104.

(5) أنظر: الرحلة المغربية، ص84.

(6) مدينة صغيرة على أربع مراحل من قلعة بني حماد. الحميري (أبو عبد الله محمد بن عبد المنعم الصنهاجي السبتي ، ت 727 هـ / 1327 م)، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس ، مطبعة هيدلبرغ، بيروت، لبنان، ط2، 1984، ص568. تقع في الجزائر اليوم، وتبعد عن قسنطينة ب 40 كلم إلى الشمال الغربي منها.

(7) العنصر: الأصل، وفي الحديث يرجع كل ماء إلى عُنْصره.

(8) الرحلة المغربية، ص93.

(9) ذكر عنها عبد الواحد المراكشي (ت647هـ/1249م) بأنها حد المغرب الأدنى أو ما يعرف بإفريقية هو قسطنطينية الهواء، وسميت بذلك لإفراط علوها وشدة منعتها، والمسافة بينها ومدينة أنطابلس—برقة- خمس وخمسين مرحلة. أنظر: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، وضع حواشيه خليل عمران المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 2005 ، ص250.

لقد بدأ العبدري مباشرة عند وصوله قسنطينة بالهجوم دون مقدمات بقوله:"ثم وصلنا إلى البلد الذي نشفت الخطوب معينه، وأبَتِ الأقدار أن تكون له مُعِينة[1]، ثم يتأسف لحالها بقوله:"جبر الله صدعها، وكفاها من نوائب الدهر ما وصل قرعها، وهي مدينة عجيبة حصينة غير أنها لخطوبِ الدهر مُستكينة...وبها للأوائل آثار عجيبة ومبان متقنة الوضع غريبة وأكثرها من حجر منحوت،يعجز الوصف إتقانه ويفوت، وقد دار بها واد شديد الوعر بعيد القعر أحاط بها كما يحيط السوار بالمعصم"[2].

ليرجع الى تقليله من شأنها بقوله:" ولم أر بها من ينتمي إلى طلب، ولا من له في فن من فنون العلم أرب، سوى الشيخ أبي علي حسن بن بلقاسم بن باديس...وهو من أهل العلم يذكر فقهاً ومسائلً، ذو سمتٍ وهيئة ووقار، وليس في البلد من يُذكَر بعلمٍ سواه البتة؛ وليست له بالرواية عناية، ولم يرو إلا الموطأ وحده[3].

كما سأل العبدري عن الأديب أبي علي حسن بن علي بن عمر القسنطيني[4]، قال عنه المقري أنه أحد أشياخ العبدري[5]، شاعر المغرب الأوسط في وقته، كاتب وأديب بارع، من أهل قسنطينة، رحل إلى مراكش، ومدح خليفة بني عبد المؤمن الناصر[6]، وقد رمى العبدري أن يجد من يروي عنه قصيدته المشهورة في رحلته من قسنطينة إلى مراكش فلم يجده، وكان القسنطيني كتب بها إلى أبي البدر بن مردنيش وهو بقسنطينة[7].

4-7.بونة:

ليواصل العبدري سفره حيث يقول" ثم وصلنا بونة ..."[8]، فوجدناها بلدة بطوارق الغير مغبونة مبسوطة البسط ولكنها بزحف النوائب مطوية مخبونة، تلاحظ من كَثَبٍ فُحوصاً ممتدة، وتُراعي من البحر جَزْرَهُ ومَدّه ؛

(1) الرحلة المغربية، ص93.

(2) نفسه، ص94.

(3) وهنا يشير العبدري أنه قرأه على الشيخ الفقيه المحدث أبي يعقوب يوسف بن موسى الغماري الحساني، حين خطر على قسنطينة راجعا من المشرق فأقام عندهم مدة لتوالي الأمطار، فقرأه عليه وهو إذ ذاك كبير وفارقه وهو عنده مجهول، وما عرف من هو حتى عرفته به حين رأيت خطه الذي كتبه له على الموطأ. الرحلة المغربية، ص95.وهنا يظهر العبدري غروره وأنه الذي يعرف دون غيره .

(4) شاعر مجيد ناثر من أهل قسنطينة رحل إلى مراكش، ومدح خليفة بني عبد المؤمن، لم نقف على وفاته قد تكون في أوائل القرن السابع الهجري (كان حيا سنة602هـ/1205م) عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، نشر مؤسسة نويهض الثقافية، ط4 ،1983، ص203-204.

(5) وفهم المقري هنا إذ أن العبدري لما حل بمدينة قسنطينة سأل من لقيه"وهو الحسن بن بلقاسم ابن باديس" عن الأديب أبي علي حسن بن علي بن عمر القسنطيني، فذكر ابن بلقاسم أنه أدرك الفكون طفل صغير، ولكنه لا يحفظ عام ولادته أو وفاته. المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1988، ج2، ص483.كما أخطأ ابن القاضي المراكشي عندما قال أخذ عنه العبدري، وربما قام ابن القاضي بالنقل عن المقري. ابن القاضي، درة الحجال في أسماء الرجال، تحقيق محمد الأحمدي أبو النور، دار التراث القاهرة– المكتبة العتيقة تونس، 1970، ج1، ص236.

(6) الغبريني، المصدر السابق، ص280؛ وعادل نويهض، المرجع السابق، ص203-204.

(7) الرحلة المغربية، ص96.

(8) يقول عنها مارمول:بناها الرومان شرقي المكان الذي توجد عليه اليوم بمسافة فرسخ واحد على نهر يدوغ،كانت في القديم تسمى هيبون، وموقعها على على ساحل البحر المتوسط. مرمول كربخال، إفريقيا، ترجمة محمد حجي وآخرين، دار النشر المعرفة ، الرباط، 1989، ج2، ص7.ويؤكد ذلك البكري بقوله ومدينة بونة أولية وهي مدينة أقشتين العالم بدين النصرانية وهي على ساحل البحر في نشر من الأرض منيع مطل على مدينة سبوس، وتسمى اليوم مدينة زاوي وبينها وبين المدينة الحديثة نحو ثلاثة أميال ولها مساجد وأسواق وحمام وهي ذات ثمر وزرع، وقد سورت بونة الحديثة بعد الخمسين وأربعمائة. البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، وهو جزء من كتاب المسالك والممالك، مكتبة المثنى بغداد، د ت، د ط. ص54-55.

تغارُ لها العيونُ من جور النوائب، وتأسى لها النفوسُ من الأسهُمِ الصّوائب، وقد أزعج السفر عن حُلولِها، فلم أقضِ وَطَراً من دخولها"[1].

" ومن أغرب المسموعات أنا صادفنا وقت المرور بها- زُويرقاً للنصارى، لا تبلغ عمارتُه عشرين شخصاً، وقد حَصَروا البلد حتى قطعوا عنه الدخول والخروج، وأسروا من البَرّ أشخاصاً فأمسكوهُمْ للفداء بمرسى البلد، وتركناهم ناظرينَ في فدائهم، ومِن مولانا اللطيف الخبير نسأل اللّطف بنا في أحكام المقادير"[2].

ويبدو أن عدم ترحاب البونيين به أثر في نفسه حتى قال فيهم هذا الكلام، وكان مذهبه أن الناس هم يعلمون الشاعر الهجاء بسوء أخلاقهم[3].

5- نقد العبدري بين مؤيد ومعارض

5-1.المؤيدون لنقده:

تمتاز هذه الرحلة أن مؤلفها رجل قوي الشخصية حاد الطبع، كثير النقد، لا يجامل في المواجهة، حريص على المعرفة، متتبع لمجالس العلماء، لا يقتصر على الأخذ منهم لأنه كان يريد أن يأخذ ويعطي ويتعلم ويعلم، وكان يعتز بأدبه وعلمه لا مباهاة بما يعرف ولكن أملا في أن لا تضيع توجيهاته وتأويلاته التي كان يتوصل إليها باجتهاده وحذقه[4].

العبدري في نفس الوقت يمتاز بذوق أدبي رفيع ويملك قدرة فائقة على التصرف في قواعد اللغة العربية واستخدام أصول بيانها، الشيء الذي أعانه على تتبع أخطاء بعض الأدباء والعلماء أو على إبداء توجيهات أخرى مخالفة لتوجيهاتهم ومغايرة لاختياراتهم[5].

والعبدري حينما كان يتتبع الإنتاج الأدبي لم يكن يستنقص الشخص بعينه وإنما كان يبحث عن ظواهر جمالية في النص ذاته يدعو لها ويبين كيفية الوصول إليها فهو حين النقد يأتي بالبديل أحيانا ويظهر قيمة التوازن بين اللفظ والمعنى[6].

5 2. الرافضون لنقده:

(1) الرحلة المغربية، ص104.

(2) نفسه، ص104.

لقد تحدث أحمد البوني في القسم الخامس عشر من كتابه عن هجومات النصارى التي تحدث عنها العبدري فقال: " فإني قلت كم هجمت النصارى على بلدكم العناب، قلت: فيما أعلم أربع مرات أولاهن قريبة من زمن الشيخ الهواري، وقد كان في السادسة من عمره- لعله يشير الى هجوم بيزا أعقبه احتلال المدينة سنة 426هـ/1034م- والثانية في حياة ابن عبد الجليل المذكور-هي حملة قامت بها فلنسية وميورقة سنة 801هـ/1399 م وباءت بالفشل الذريع، والثالثة عام982هـ/1574م والرابعة سنة 1016هـ/1607 م. أحمد بن قاسم البوني، التعريف ببونة إفريقية بلد سيدي أبي مروان الشريف، تقديم سعيد دحماني، منشورات المجلس الشعبي البلدي، عنابة، الجزائر، ط1، 2001، ص76، و الهامش84.

(3) سعد بوفلافة، "أحمد البوني وكتابه التعريف ببونة إفريقية بلد سيدي أبي مروان الشريف"، مجلة التراث العربي، العدد93-94، ص241.

(4) محمد بن عبد العزيز الدباغ، المرجع السابق، ص99.

(5) نفسه، ص100.

(6) نفسه، ص113.

يبدو أن العبدري كان متشائما، ويراعي مقاييس لا يقره عليها جل الباحثين، إذ وصف في رحلته كثيرا من العواصم لا تتفق مع واقعها[1]، ومثال على ذلك مدينة بونة حيث تصدى له أحمد بن قاسم البوني واتهمه بأنه أخل بالتعريف ببلد العبد الضعيف، بل ذكر لها نقيصة عظيمة، فعقب "أحمد البوني" في التعريف ببونة إفريقية على مقالة العبدري معتمدا على مؤرخ بوني عاش في القرن التاسع الهجري وهو أبو الحسن فضلون الذي صنف كتابا في تاريخ المدينة بعنوان" الكلل والحلل"[2].

العبدري فهو رجل غاضب ساخط ممرور لا يكاد يلقى ما يرضيه إلا نادرا، ورأيه في أهل زمانه يوجزه قوله: "وقد تعطل في هذا العصر موسم الأفاضل، وتبدد في كل قطر نظام الفضائل، وتفرق أهلها أيادي سَبا[3]، وصاروا حديثا في الناس مُستَغرَبا، فعادوا اسما بلا مسمى، وحرفا ما دل على معنى، فالمحدث عنهم في مشرق أو مغرب كالمحدث عن عنقاء ومغرب، ولو طاب الورد لحمل الري "[4].

لا يحق لكل ذي ذوق وأدب في المعرفة أن يجعل من مصادر معرفته تهجم على الناس لمجرد أنه أصيب بخيبة أمل كلما دخل مدينة أو قرية فلم يجد فيها ما يحقق رغبته، فكثير من القلق الذي كان ينتابه في رحلته وكثير من الانفعال الذي كان يتجلى في كتابته كان مرجعه إلى أمرين: إما إلى انعدام أهل العلم بالمرة وإما إلى تصدر بعض الأدعياء في العلم دون أن يجدوا رادعا[5].

فهذه مبالغة في الحملة على أهل عصره تجعل القارئ في شك من صحة أحكامه وآرائه، وإلا فكيف يرمي أهل زمانه بهذا العنف عن قوس واحدة، ثم يقول بعد ذلك أنه يحق الحق ويلتزم الصدق؟[6] ومن غريب أحكامه على المغرب كله قوله:"أو ليس من الأمر الأمَرَّ الخارج عن كل قياس أن المسافر عندما يخرج عن أنظار مدينة فاس لا يزال إلى الإسكندرية في خوض ظلماء وخبط عشواء، لا يأ من على ماله ولا على نفسه، ولا يؤمل راحة في غده إذ لم يرها في يومه وأمسه..." [7].

فهذا كلام لا يمكن أن يصدق لأنه يصور جزءا ضخما من عالمنا العربي الإسلامي في صورة واحدة لم يبلغ في وصفها بهذا السوء عدو ولا غريم، والغريب بعد ذلك أننا نجده يلتقي الفضلاء، وأهل الخير والصلاح على كل

(1) المهدي البوعبدلي، "لمحات من تاريخ بونة الثقافي والسياسي"، محاضرات ومناقشات الملتقى العاشر للفكر الإسلامي، عنابة، 10-19 يونيو 1976، مج1، ص52.

(2) أحمد بن قاسم البوني، المصدر السابق، ص26.

حيث يذكر في مقدمة كتابه أسباب تأليفه فقال:"لما كتبت بإعانة الله تعالى رحلة الإمام العبدري رحمه الله تعالى، عثرت على بعض الأماكن ارتكب فيها غير الصواب، عند ذكره بلدنا وبلد قسنطينة فأردت التنبيه عليها ليعلمها كل أواب، وقد كتبت عليها أزيد من 300 طرة كل واحدة أحسن من دُرة عند ذي نفس برة ...وقد أخل بالتعريف ببلد هذا العبد الضعيف بل ذكر لها نقيصة عظيمة وأمور مخلة بها هضيمة لا يقبلها عقل عاقل ولا يصدق بها ناقل .**أحمد بن قاسم البوني: المصدر السابق، ص41-42**.

(3) أي أيادي متفرقين.

4) العبدري، المصدر السابق، ص32.

(5) محمد بن عبد العزيز الدباغ، المرجع السابق، ص102.

(6) حسين مؤنس، المرجع السابق، ص520.

(7) العبدري، المصدر السابق، ص33.

مرحلة من مراحل الطريق ويطيل في الكلام على ما وجد عندهم من الفضل والخير والعلم، والحقيقة أن العبدري كان رجلا متشائما سيء الظن في الدنيا والناس، فهو دائما في سأم وقلق وضيق وإسراع إلى النفور والمذمة، فهو لا يكاد يلقى في طريقه رجلا يوصف بالعلم إلا في النادر[1].

فيقول بمناسبة مروره بتلمسان" ما رأيت بتلمسان من ينتمي إلى العلم ولا من يتعلق منه بسبب سوى صاحبنا أبي عبد الله محمد بن عمر بن خميس"[2]، ثم يعود مرة أخرى ليقول أنه التقى بالشيخ الفقيه أبا إسحاق إبراهيم بن يخلف التنسي وأخاه أبا الحسن وهما من سكان تلمسان، يقول عنهما:" وليس منها فقيهان مشاركان في العلم مع مروءة تامة ودين متين، وأبو إسحاق أسنهما وأسناهما، وهو ذو صلاح وخير"[3] وهذا تناقض صارخ صارخ في كلامه.

ثم يعود مرة أخرى ليؤكد هذا التناقض قوله: " وممن لقيته بتلمسان أبو زكرياء يحي بن عصام، وهو رجل متقلل حيي متعفف، له حظ من اللغة، ويقرض من الشعر ما لابأس به، جارا لأبي عبد الله بن خميس فكنت أجتمع به عنده كثيرا"[4].

ولعله كان يقصد من وراء ذلك رفع همة سكان تلك المدن ليراجعوا أحوالهم وليبحثوا عن طريق خلاصهم من الجهل فلا حياة لهم إذا ظلوا على ما هم عليه من إهمال الطل، وهذا سبب من السباب التي يمكن أن نفسر بها حدة أسلوب العبدري[5].

والحقيقة غير ذلك حيث كانت تلمسان –خلال رحلة العبدري سنة688هـ/1289م –في العهد الزياني قمة في التطور والازدهار العلمي، وأكيد هناك لبس فيما قال، أو حدثت له حادثة هناك جعلت قلبه يتحامل عليها بهذا الشكل.

ويقول عن مليانة " وما بقي بها من له بالعلم أدنى عناية"[6]، وعن مدينة الجزائر " فلم يبق بها من هو أهل العلم محسوب"[7]، ثم يصل إلى بجاية ليرضى عن أهلها بعض الشيء، ويصفهم بالمواضبة على الصلاة، ثم يعود الى سخطه ونفوره ويقول:" غير أنه قد اعتراه من الغير، ما شمل في هذا الأوان البدو والحضر، وقد غاض بحر العلم الذي كان به حتى عاد وشلا[8]، وعفا رسمه حتى صار طللا"[9]، رغم أنه يقر أنه لم يبق في بجاية سوى يومين،

(1) حسين مؤنس، المرجع السابق، ص521.
(2) أنظر: الرحلة المغربية، ص53.
(3) المصدر نفسه، ص53.
(4) نفسه، ص73.
(5) محمد بن عبد العزيز الدباغ، المرجع السابق، ص103.
(6) أنظر: الرحلة المغربية، ص78.
(7) المصدر نفسه، ص82.
(8) الوشل الماء القليل.
(9) أنظر: الرحلة المغربية، ص83.

فكيف يستطيع أن يحكم على مدينة كبيرة كبجاية في يومين قضى أغلب وقته فيها في حضرة الشاطبي كما يقر هو.

فأغلب الذين يتحدثون عن العبدري يذكرون انه كان سبابا وذا لسان مقذع، بسبب الرغبة في إصلاح أحوال تلك المدن[1]، لكن هذا الهدف النبيل لا يمكن تحويله للشدة والقسوة وتحويل حتى للحقائق.

وعندما وصل إلى قسنطينة قال فيها:"ولم أر بها من ينتمي إلى طلب، ولا من له في فن من فنون العلم أرب، سوى الشيخ أبي علي حسن بن بلقاسم بن باديس" بل حتى ابن باديس قلل من شأنه بأنه تلقى الموطأ على شيخ لا يعرفه وأن العبدري هو من تعرف عليه من خلال خط يده[2]، وهكذا في كل البلاد تقريبا فيما عدا تونس[3].
تونس[3].

ولم يفوت العبدري الفرصة في السؤال عن الشاعر القسنطيني ابن الفكون ليعرج على قصيدته وقدم لها نقدا بلاغيا لاذعا، ويبدو أن العبدري قد حضرها مسبقا لأنه يقول أنه سأل عن من يرويه عنه فلم يجد لكنه يلقيه ويقدم لها نقدا كبيرا مما يعني أنه اطلع عليها مسبقا وكان يختبر فقط الآخرين من علماء قسنطينة.

وقد رد عليه أحمد بن قاسم البوني في المبحث الأول من كتابه، فيتحدث عن اعتراض العبدري على الشيخ الفكون القسنطيني صاحب الرحلة المنظومة، وانتقاد العبدري لبعض الكلمات التي وردت في قصيدة الفكون المشهورة (كالغنج، وبدور، وبهي وغيرها) وقد كشف أحمد البوني في هذا المبحث أخطاء العبدري ودافع عن صحة تلك الكلمات مقدما حججا علمية لا يرقى إليها الشك، وختم المبحث بقوله:"والمصنف رحمه الله تعالى قطّ ما التمس عذرا لأحد في هذه الرحلة المباركة وإنما شأنه الانتقاد حتى على أشياخه الأسياد[4].

وفي المبحث الثاني ينتقد أحمد البوني وصف العبدري لبونة، فيقول:"وأما كلامه في بلدنا بونة، فلا يقبل إلا كل ذي نفس بتصديق الكذب مغبونة، أيمكن في عقل عاقل أن تكون بلد فيها من رجال المؤمنين مؤمنون حذرون يغلبهم من الكفار عشرون؟ كلا لا يقبل هذا عقل عاقل وإنما هو كذب من الناقل...وما خلق الله تعالى العقل في الإنسان إلا ليميز به بين الكذب والصدق...الخ[5].

وقد بين الأستاذ محمد الفاسي في عبارة نقلها عن رحلة ابن عبد السلام الناصري تفسر لنا بعض الشيء سبب سخط العبدري على الناس، قال تعليقا على ذمه أهل مصر وهو ينطبق على بلاد المغرب الأوسط:"...جريا على عادته عفا الله عنه في ذم البلاد وأهلها، وما كان ينظر إلا بعين السخط إليها، فليته مدح من يستحق المدح، وذم من يستحق الذم، أو يتغافل عنه إلا بقصد البيان، وما رأيناه مدح بلدة ولا سكانها إلا مدينة تونس، ولو أمكنه أن يقول في الحرمين هجوا لقال، وما ذاك إلا أن الرجل بربري الأصل من سكان

(1) محمد بن عبد العزيز الدباغ، المرجع السابق، ص103.
(2) أنظر: الرحلة المغربية، ص95.
(3) حسين مؤنس، المرجع السابق، ص521.
(4) أحمد بن قاسم البوني، المصدر السابق، ص47.
(5) نفسه، ص47-48.

الجبال[1]، لم يألف الناس ولا البحث عنهم ولا الذهاب إليهم، إنما ينزل بمدرسة من جملة الطلبة، أو فندق من جملة الغرباء"[2].

ويعود شكره لتونس بأنه وجد فيها ما لم يجده في غيرها، حيث وجد ناس يحتفون به ويؤنسونه بل يتركون أعمالهم ليقفوا على خدمته، ويعرفونه بالفضلاء من أهلها، فأنس بهم واستروح، ولم يشعر بهذا الخمول الذي كان يملأ نفسه إذا نزل بمدرسة في جملة الطلبة أو بفندق من جملة الغرباء، وهذا ما كان يثير نفسه ويملؤها سخطا، أما إطلاق لسانه في أهل البلد بعد رحيله عنه[3].

فريجع الناصري من خلال تفسير محمد الفاسي: أن العبدري انتقل من جو الريف والاسترواح والاطمئنان، وأن له مكانة، إلى جو المدن والناس والكآبة والسخط في داخلها[4].

وفي الختام أرى أن الرحالة العبدري يغضب للحق وينصره ويتألم كلما رأى باطلا يتعالى أو ظلما يتطاول، ونستشف من خلال ما كتب إنسانا يحب العلم وينتصر للعقيدة السنية، إنسانا يتغنى بالبطولة ويتلذذ بالحكمة ويعجب بالعبقريات ويؤيد الوحدة ويكره التفرقة ويأسف على ما أصيبت بعه بعض المدن الإسلامية من الانحطاط والانهيار[5]، وعلى رأسها مدن المغرب الأوسط مع التهويل والتضخيم الكبير لذلك لأنه أديب يحاول إظهار هذا الانحطاط بأسلوب راقي مما يحوله إلا قسوة في التعبير .

6-خاتمة:

شخصية العبدري تبقى بارزة طيلة الدهر، أطلعنا على تذوقه للعلوم وإقدامه على أخطار السفر ومشاقه وإرادته القوية وتضلعه في علوم اللغة وباعه الطويل في التصرف في شعبها ومبانيها المختلفة.

إن رحلة العبدري نموذج مهم لأدب الرحلات في الغرب الإسلامي يختلف كل الاختلاف عن طراز ابن جبير، ويختلف أكثر عن رحلة ابن بطوطة -أمير رحالة المسلمين على الإطلاق- فإن البحث المضني عن الدقائق الفقهية واللغوية والأدبية التي كانت كل همه، قد جعل رحلته وكأنها سياحة عقلية عاطفية لا رحلة سفر وضرب في مناكب الدنيا واكتشاف للأرض وأهلها.

كان العبدري أديبا لا يحصى له عدد للكلمات، وتراكيبه مختلفة الأسلوب الفني دالة على الباع الطويل في علوم اللغة، إلا أنه أديب عنيف لا يقبل إلا ما جرى مجرى البلاغة والبيان العربي، فقد كان قاسيا في نقده، لعديد من الفقهاء والعلماء ربما لعدم تضلعهم في اللغة.

كان العبدري إذا دخل مدينة فلم يعثر فيها على عالم سخط وغضب وأبدى من أجل ذلك أسى كبيرا وأسفا عميقا واعتبر ذلك المكان كأنه معدوم بالمرة إذ لا وجود لمكان علا فيه الجهل وخلا من العلماء ويزيد أساه حدة إذا كان لذلك المكان ماض

(1) وهذا كذلك هو ذم للبربر واتهامهم بالحضارة والتخلف، وهو تحليل ضعيف.
(2) محمد الفاسي، المرجع السابق، ص1-14.
(3) حسين مؤنس، المرجع السابق، ص522.
(4) محمد الفاسي، المرجع السابق، ص1-14.
(5) محمد بن عبد العزيز الدباغ، المرجع السابق، ص99.

مجيد فهو قد سافر على أساس أنه راغب في المعرفة، آمل في الاستزادة منها فإذا فوجئ بخلو المدن التي زارها من أهل العلم اضطربت نفسه وضاق صدره وسجل اضطرابه وانفعاله بأسلوب عنيف قد يصل إلى حد الهجاء

7. قائمة المصادر والمراجع:

المصادر الرئيسية:

1-العبدري، الرحلة المغربية، تحقيق بن جدو، مطبعة البعث، قسنطينة، ط1، 1964

2-العبدري، الرحلة المغربية، تحقيق علي إبراهيم كردي، تقديم شاكر الفحام، دار سعد الدين للنشر والتوزيع، دمشق، سوريا، ط2، 2005.

3-العبدري، الرحلة المغربية، تقديم سعد بوفلافة، منشورات بونة للبحث والدراسات، عنابة الجزائر، ط1، 2007.

المصادر الأخرى:

1-ابن القاضي، درة الحجال في أسماء الرجال، تحقيق محمد الأحمدي أبو النور، دار التراث القاهرة، 1970.

2-ابن حوقل، صورة الأرض، منشورات مكتبة دار الحياة، بيروت، لبنان، 1992.

3-ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ضبط المتن والحواشي والفهارس خليل شحادة ومراجعة سهيل زكار، دار الفكر للطباعة، بيروت، لبنان، ط1 ، 2000.

4-الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، قسم المغرب العربي، تحقيق محمد حاج صادق، د ط، الجزائر، 1983.

5-البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، وهو جزء من كتاب المسالك والممالك، مكتبة المثنى بغداد، د ط.

6-البلوي خالد بن عيسى، تاج المفرق في تحلية علماء المشرق، تحقيق الحسن السائح، طبع في وزارة الأوقاف المغربية الرباط، مطبعة المحمدية، د ط.

7-البوني أحمد بن قاسم، التعريف ببونة إفريقية بلد سيدي أبي مروان الشريف، تقديم سعيد دحماني، منشورات المجلس الشعبي البلدي، عنابة، الجزائر، ط1، 2001

8-التجاني، الرحلة، تقديم حسن حسني عبد الوهاب، الدار العربية للكتاب، ليبيا- تونس، 1981

9-التنبوكتي، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، دار الكتب العلمية، بيروت، د ط.

10-الحموي ياقوت، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، 1977.

11-الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار ، تحقيق إحسان عباس ، مطبعة هيدلبرغ، بيروت، لبنان، ط2 ، 1984.

12-الزركلي: الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط15، 2006

13-السراج محمد بن محمد، الحلل السندسية في الأخبار التونسية،تحقيق محمد الحبيب الهيلة، بيروت، 1985.

14-السملالي العباس بن إبراهيم المراكشي، الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام، المطبعة الملكية، الرباط، 1974.

15-العياشي أبو سالم، رحلة العياشي" أو ماء الموائد"، الرباط، 1970.

16-الغبريني، عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تحقيق رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط2 ، 1981.

17-الكتاني عبد الحي بن عبد الكبير، فهرس الفهارس والأثبات، تحقيق إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 1982

18-المراكشي عبد الواحد، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، وضع حواشيه خليل عمران المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 2005.

19-المقري، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1988.

20-الميداني أبو الفضل، مجمع الأمثال، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة السنة المحمدية، 1955.

21-الورثلاني، الرحلة الورثلانية، دار الكتاب العربي، بيروت، 1974.

المراجع

1-حليمي علي عبد القادر، مدينة الجزائر، نشأتها وتطورها، المطبعة العربية لدار الفكر الإسلامي، الجزائر، 1972.

2-فروخ عمر، تاريخ الأدب العربي، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط1، 1983

3-مؤنس حسين، تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس، مدريد، ط2، 1986.

4-مرمول كربخال، إفريقيا، ترجمة محمد حجي وآخرون، دار النشر المعرفة ، الرباط، 1989

5-نويهض عادل، معجم أعلام الجزائر، نشر مؤسسة نويهض الثقافية، ط4 ،1983.

المجلات والدوريات

1-البوعبدلي المهدي، "لمحات من تاريخ بونة الثقافي والسياسي"، محاضرات ومناقشات الملتقى العاشر للفكر الإسلامي، عنابة، 10-19 يونيو 1976، مج1

2-بوفلافة سعد، "أحمد البوني وكتابه التعريف ببونة إفريقية بلد سيدي أبي مروان الشريف"، مجلة التراث العربي، العدد93-94.

3-الدباغ محمد بن عبد العزيز، "العبدري واتجاهه الأدبي من خلال رحلته"، مجلة المناهل، وزارة الشؤون الثقافية، الرباط، المغرب، العدد39، السنة 16، 1990.

4-الفاسي محمد، "رحلة العبدري" صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد"، مجلد 9-10، سنة 1961-1962.

المراجع بالغة الأجنبية

Cherbonneau ; Netice et Extraits des Voyagea d' EL-Abdery ; dani journ. AS.5ème Série IV, 144spp.